

نقد الخطاب الصوفي عند ابن تيمية
قراءة في عتبات النصّ لرسائله (حقيقة مذهب الاتحاديين) أنموذجاً

**Ibn Taymiyyah's Critique of Sufi Discourse:
An Analytical Reading of the Thresholds of His Treatise (The
Reality of the Unionists' Doctrine) as a Case Study**

د/ عبد الناصر درغوم

Abdennassir DERGHOUM

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية

derghoum.abdennassir@univ-guelma.dz

تاريخ القبول: 2025/11/16

تاريخ الإرسال: 2025/06/15

الملخص:

يروم هذا البحث الوقوف عند خصائص الرؤية النقدية لابن تيمية، ممثلة في مقاربتة التحليلية للخطاب الصوفي، والذي جسّدته رسالته الموسومة بـ "حقيقة مذهب الاتحاديين وبيان بطلانه بالبراهين العقلية والعقلية"، والتي توصلنا من خلال قراءة نقدية لعتباتها النصية، إلى جملة من معالم المنهج النقدي، الذي يميّز القراءة التيمية للتراث الصوفي، والذي بدت لنا ذات طبيعة نسقية، تجنح للموضوعية، وتتوخى القراءة العميقة للبنى المتوارية خلف ظاهر النص، وذلك نظراً لطبيعة الخطاب الصوفي الاشتباهية، متعددة القراءات، والمفتوحة على أنواع من التأويلات.

الكلمات المفتاحية: نقد؛ الخطاب الصوفي؛ ابن تيمية؛ عتبات النص؛ التصوّف.

Abstract:

This research stand at the characteristics of Ibn Taymiyya's critical vision, represented in his analytical approach to Sufi discourse, embodied in his book "The truth of Federalists doctrine and his statement of its nullity with the transferable and mental proofs", which we reached through a critical reading of their textual thresholds, to some critical approach, distinguishing his reading, which seemed to be of systemic, objective, and envisages a deep reading of the hidden structures over apparent text, due to the suspected, mystical, multi-read, and open nature of the Sufi discourse.

Key words: Criticism; Sufi discourse; Ibn Taymiyyah; Text thresholds; Sufism.

مقدمة:

يعتبر الخطاب الصوفي نوعاً خطابياً مميزاً بما يحتويه من سمات جوهريّة، تميز بها عن غيره من الخطابات شكلاً ومضموناً، تلقياً وإنتاجاً، ويرجع ذلك أساساً لخصوصية ملابساته المحيطة بالعملية الخطابية بكل عناصرها، ونظراً لذلك فقد شكلت مقاربات تحليل الخطاب الصوفي تحدياً حقيقياً؛ وهذا لما تتطلبه القراءة الجادة لهذا الخطاب من: فهم لخصائص المخاطب النفسية والسلوكية والعقدية والفلسفية، وعلم بملابسات التخاطب وسياقاته، وعصره، وظروف تكوينه، وتدقيق في آليات الخطاب نفسه من حيث المقاصد، والمعاني، والاصطلاحات، والمباني. ومن هنا تبرز أهمية هذا البحث في تسليطه الضوء على إشكالية تتعلق بخصائص القراءة النقدية عند ابن تيمية (ت728هـ) في مقاربتة للخطاب الصوفي، بعدّها رؤية نقدية فريدة، اكتسبت تميزها من خصوصية ابن تيمية نفسه؛ باعتباره ذا خبرة واسعة، وباعٍ طويل في نقد الفرق، والملل، والنحل، والتي من جملتها الصوفية على اختلاف طرقها. ويهدف البحث لاستجلاء خصوصيات النقد التيمي للخطاب الصوفي، وذلك من خلال دراسة وصفية تحليلية لرسالة أفردتها ابن تيمية للرد على القائلين بوحدة الوجود من الصوفية، وأسماها "حقيقة مذهب الاتحاديين - أو وحدة الوجود - وبيان بطلانه بالبراهين النقلية والعقلية".

1. النقد: من ضيق الأنواع الأدبية إلى سعة المنجزات الخطابية

1.1. مفهوم نقد الخطاب:

1.1.1. مفهوم النقد العام: بالعودة إلى المعاجم اللغوية العربية، نجد أن "النقد" في أصل مادته لا يخرج عن معاني الإظهار والإبراز للشيء أو الحالة، وهو المعنى الذي قرره ابن فارس في معجمه "مقاييس اللغة" فقال: "النُّونُ وَالْقَافُ وَالذَّالُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِبْرَازِ شَيْءٍ وَبُرُوزِهِ"¹، فمعاني النقد كما هو ظاهر تدور في أصل الوضع حول النقد المادي، وبخاصة نقد الدراهم لإبراز جيدها من زائفها، ثم توسّع المعنى دلالياً ليشمل نقد المعاني المجردة؛ كالكلام، والخطاب، والأدب، والفكر وغيرها.

ويشيع في المراجع النقدية تعريف النقد اصطلاحاً مقيداً بصفة الأدبية؛ فيقال (النقد الأدبي)، ويعرّف هذا التركيب الوصفي عموماً بأنه: "عملية وصفية تبدأ بعد عملية الإبداع مباشرة، وتستهدف قراءة الأثر الأدبي ومقاربتة قصد تبيان مواطن الجودة والرداءة [...] وغالباً ما يرتبط النقد بالوصف والتفسير والتأويل والكشف والتحليل والتقويم"².

2.1.1. النقد الأدبي وتحليل الخطاب: يقرب من مصطلح (النقد الأدبي) مصطلح آخر

يشاركه كثيراً من خصوصياته، وهو مصطلح (تحليل الخطاب)، وقد يستعمل بمعنى الأول تجوّزاً أو تجاوزاً³، إلا أنه يفترق عنه بعدم اختصاصه بالآثار الأدبية فحسب، بل يمتد ليشمل أنواعاً أخرى، كالخطاب العلمي، والخطاب الديني، والخطاب المتخصص أيّاً كان تخصصه (اجتماعياً، نفسياً، تاريخياً، لسانياً...) وذلك وفق آليات ومناهج تتناسب وطبيعة كل خطاب.

===== نقد الخطاب الصوفي عند ابن تيمية: قراءة في عتبات النص لرسالته (حقيقة مذهب الاتحاديين) أنموذجاً

ويعرّف نعمان بوقرة (تحليل الخطاب) بأنه: "منظومة معرفية متداخلة ومتكاملة من المعارف والنظريات والإجراءات والوسائل والأهداف، تتوغل الخطاب موضوعاً لها، فتبحث في تشكله، وكيفية ترابط أنساقه الدالة، وتفاعلها لتحقيق بنية متسقة داخلياً، ومنسجمة مع السياق الاجتماعي، لتعكس في تعاضدها رؤية منشئ الخطاب للعالم، وتشفي في بعض جوانبها بتصورات جمعية وفردية"⁴، فيغدو تحليل الخطاب بهذا المفهوم وسيلة شاملة لمقاربة الخطابات على اختلاف أنواعها، طالما يتقيد التحليل بالأطر المنهجية والمعرفية التي تتناسب وخصوصية كل خطاب.

وعليه: أمكن – انطلاقاً من مفهومي: النقد الأدبي وتحليل الخطاب- أن نخرج بمفهوم مقارب لمصطلح (نقد الخطاب)؛ وبناء عليهما يمكن اعتباره: عملية وصفية تحليلية لخطاب منجز، تهدف لإبراز محاسن الخطاب، ومساوئه -شكلاً أو مضموناً-، وفق خطوات إجرائية معلومة، تقود أخيراً لإصدار حكم تقويمي عام حول الخطاب، والمخاطب.

2.1. ابن تيمية.. ناقداً؟ إن بحث الخطاب الصوفي إنما هو مقارنة له من حيث هو خطاب له مادة ومضامين، والنقد عند ابن تيمية هنا منصب على تلك المضامين، بغية كشف الأنساق المتوارية في بنيتها العميقة، وهدفنا وصف هذا النقد وتحليله، بغية الكشف عن خصائصه ومميزاته؛ فعملنا إذن يندرج فيما يمكن أن نسميه بـ "نقد النقد" لفلسفة الخطاب العقدي الصوفي.
وابن تيمية إذ قد عُرف وشُهر في ميدان نقد الفرق، والملل النحل، فنقده ذاك ليس في حقيقته إلا تحليلاً – شُهد بتميّزه- لخطابات تلك الفرق، ونقداً لها، وهو ما يدفعنا للبحث عن سمات التميز والفرادة في العملية النقدية التي كان ابن تيمية يمارسها في تحليله لخطابات مخالفيه، ونحن إذ ذاك موقوفون على وصف التجربة النقدية وتحليلها، دون أن نُعنى بتتبع المسائل المنتقدة، فذاك مما لا يتسع له هذا المقام.

2. الخطاب الصوفي: بين حقيقة المفهوم وتعدد الأفهام

1.2. مفهوم الخطاب الصوفي:

1.1.2. مفهوم الخطاب: بين المنظور اللساني والمنظور النقدي: بتأمل مختلف التعريفات التي حاولت مقارنة مفهوم الخطاب، نستطيع إجمالها في بعدين أساسيين هما: البعد اللساني البنيوي، والبعد النقدي الأدبي؛ فعلى الأول يمكن تعريف الخطاب بأنه ما استجمع السمات الكلية التالية: (+كلام "ملفوظ"، +نظام، +ذو فائدة "مفهم"، +تفاعلي، +سياقي، +حركي، +/- ذو حد)⁵، فهو إذن: كل ملفوظ محدود الطول، مفهوم المعنى ضمن سياق محدد، ينتمي لنظام تواصل ذي طبيعة تفاعلية حركية. وهو بهذا يجمع التوجهين الشكلي والوظيفي في مقارنة الخطاب، وكل ذلك من المنظور اللساني.

وأما من المنظور النقدي الأدبي، فقد تجاوز مفهوم الخطاب تصوره اللساني الشكلي البحث، لينفتح على عوالم الإنتاج والدلالة والتداول؛ إذ يعرفه ميشال فوكو (M. Foucault) بأنه: "شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، التي تبرز فيها الكيفية التي يُنتج فيها الكلام كخطاب، ينطوي على الهيمنة، والمخاطر في الوقت نفسه"⁶.

وقريب من هذا ما أقره رابح بوحوش في تعريف الخطاب بأنه: "فعل النطق، أو هو فاعلية تقول وتصوغ في نظام، ما يريد المخاطب قوله، من حيث هو كتلة نطقية لها طابع الفوضى، وحرارة النفس، والرغبة في الحديث عن اللغة باللغة، لا هو جملة، ولا هو نص، ولا هو نظام أو قاعدة، إنه الخطاب الذي يمارسه مخاطب يعيش في مكان وزمان تاريخي، تسود فيه العلاقات الاجتماعية بين المتحاورين والمتكلمين"⁷.

وعليه نستطيع بناءً على ما سبق أن نحدد مفهوماً مقارباً للخطاب فنعتبره: رسالة لغوية محدودة بين طرفين، يتفاعلان في وضعية خطابية ضمن سياق معين، تحكمه سنن التواصل التي أقرها مجتمع ذو خصوصيات معلومة، وأعطاه دلالاتها اللغوية والثقافية والاجتماعية اللازمة لحدوث التواصل واستدامته.

وإذا كان هذا مفهوم الخطاب العام، أمكن بالقياس عليه أن نستشف مفهوم الخطاب الصوفي، بعده مركبا وصفيا محددا ومختصا، ولا بد قبل ذلك من تحديد مفهوم (التصوف) الذي نسبنا الخطاب إليه، وعلقتاه عليه، خاصة وأن هذا الأخير تتجاذبه مفاهيم ورؤى بحسب البيئة الاجتماعية والفكرية والفلسفية التي نشأ فيها من يقارب هذا الخطاب⁸.

2.1.2. مفهوم التصوف: تقتضي الضرورة المنهجية الاكتفاء بعرض مقاربات التصوف في مفهومه الإسلامي، والملاحظ أن أغلب التعريفات له تتخذ بعدا رمزيا إشاريا ذا أنساق فلسفية عميقة، ولعل ذلك "لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات"⁹.

وبالجملة فمفهوم التصوف وإن تعددت صيغ التعبير عنه فهو لا يخرج في النهاية عن البحث عن المطلب الأسنى، وهو بلوغ الغاية في مراتب الكمال والنهاية، قال ابن تيمية: "ثم (التصوف) عندهم له حقائق وأحوال معروفة، قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم: (الصوفي) من صفا من الكدر، وامتأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوي. وأشباه ذلك: وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون"¹⁰.

وعليه: يمكن تحديد مفهوم "الخطاب الصوفي" باعتباره مركبا وصفيا، تحدده السمات العامة للتصوف، بعده منهجا له خصوصياته الفكرية والثقافية والفلسفية، هذا مع الإقرار بصعوبة تحديد إطار جامع مانع يستوعب كل خصائصه؛ إذ هو خطاب تنوعت مفاهيمه، فتنوعت أفهام الناس له، وانفتح على عدة قراءات وتأويلات، جاءت بدورها بعدد التساؤلات.

فالخطاب الصوفي تجربة دينية فلسفية فريدة، تعكس نظرة الصوفي المميزة للكون وخالقه، وهي إذ ذاك لا تزال في ترقٍ وصعود في معارج الكمال والجمال، حتى تتصل في غاياتها القصوى إلى مكاشفة المعنى المطلق والأبدي، فيستحيل المتعدد واحدا، والواحد لا معنى له إلا في تجلي صورته على كل ما عداه.

وهذه النظرة الفلسفية لمفهوم الخطاب الصوفي هي أدنى ما يمكن أن نقارب من خلاله هذا المفهوم المعقد، نظرا لطبيعة هذا الخطاب، وخصوصياته في الإنشاء والتلقي.

===== نقد الخطاب الصوفي عند ابن تيمية: قراءة في عتبات النص لرسالته (حقيقة مذهب الاتحاديين) أنموذجاً

2.2. خصائص الخطاب الصوفي:

إن خطاباً بالمفهوم المعقد الذي سقناه، لا بد أن ينعكس معناه على جملة الخصائص التي يتميز بها، وهو ما نراه واضحاً بجلاء في عناصر محددة: كالمخاطب، والخطاب، والمقام.

● **خصائص المخاطب:** وهو الصوفي على اختلاف رتبته ومقاماته، وتفاوت مطالعته ومكاشفاته، فإنه شخصية مميزة، وهي ليست عادية يقينا، بل قد تكون رتبة لا يصلها إلا "من صفا من الكدر، وامتأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر"¹¹، وخصوصية الصوفي في نفسه، تسري لكل ما يتصل به، ومن جملة ذلك: الخطاب المنجز الذي ينتجه في مقاماته المختلفة.

● **خصائص الخطاب:** وهو محاولة لمحاكاة تلك التجربة الروحية الفريدة التي يعيشها الصوفي، وقد تضيق عن استيعابها اللغة بما رحبت، "لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات"¹²، ويظهر هذا المعنى جليا في اصطلاحات الصوفية، وما تميزت به من شحن دلالي، ذي أبعاد رمزية وإشارية عميقة، مما يستوجب الرجوع في كثير من الأحيان إلى المعاجم المتخصصة، والشئ نفسه على مستوى التراكيب؛ إذ تكتسي هي الأخرى تكتيفات للمعنى بما يتناسب وقوة الأحداث المعبر عنها، وهو ما يفتح باب التأويل على مصراعيه، خصوصا مع التراكيب المحتملة ذات التصاريح والوجوه.

● **خصائص المقام:** ويشمل مجموع الأحوال التي يترقى في معارجها العارف الصوفي، وهي من التعقيد والتداخل بما لا يدع مجالا لمحاولة الإحاطة بها علما، إذ هي قد وجدت لتُعاش وتُكابد، لا لتوصف وتُسرَد؛ فليس الخبر كالمعاينة، وتلك الأحوال والمقامات من القوة والعمق بحيث قد تغلب على من عايشها فتؤثر على فكره وسلوكه وخطابه، فتعطي كل ذلك صبغة مميزة قد لا يؤتى كل أحد فهمها، ولا يوفق سائر الناس لتصورها.

3. قراءة نقدية في عتبات النص لرسالة ابن تيمية في نقد فلسفة الخطاب العقدي الصوفي:

تقدّم فيما سبق: أنّ الخطاب الصوفي بعدّه تجربة دينية فلسفية = إنما يُعنى ببعدين أساسيين هما: علاقة الصوفي بالكون، وعلاقته بخالق هذا الكون.

وبالتأمل في حقيقة الخطاب الصوفي، نجد أن الأول يتفرع عن الآخر؛ إذ طبيعة تصور العلاقة مع الله عند الصوفي هي ما يحدوه لتبني تلك الرؤية للعالم، والتي تنعكس بدورها على الخطاب، ويظهر ذلك مثلاً في مفهوم التصوف عند الجنيد "سيد الطائفة" (ت297هـ) وهو: "أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة"¹³، ومقصوده التخلي عما سوى الله، والتجرد عما سواه، مما هو من مستلزمات الطبيعة البشرية، ومن مقتضيات الدواعي الإنسانية، ولإن كانت هذه هي الرؤية عند الجنيد وأتباعه، فإنها تختلف عند متصوفة آخرين كابن عربي (ت638هـ) وأضرابه؛ إذ تتخذ رؤيتهم للتصوف أبعاداً مغرقة في التجريد، فكانت بذلك وعاءً لاحتواء مفاهيم واصطلاحات من قبيل: الاتحاد والحلول، والفناء والسكر، والمكاشفة والمشاهدة، والتوحيد والتفريد...

إن هذه الرؤية المتفردة لمثل تلك القضايا الحساسة لم تسلم من عوارض النقد والرد، حتى من لدن بعض الصوفية أنفسهم، فضلاً عن مخالفتهم، ومن هنا تأتي الرسالة التي أفردها ابن تيمية لنقد مذهب من قال بالاتحاد من الصوفية، على اعتباره أحد مضامين الخطاب الصوفي التي خالفت النسق العام الذي ألفه الفكر الإسلامي حسب ابن تيمية.

والمقصود بالاتحاد كما ذكره الكاشاني (ت 730هـ): "شهود الوجود الحق الواحد المطلق، الذي الكل به موجود بالحق، فيتحد به الكل، من حيث كون كل شيء موجوداً به، معدوماً بنفسه، لا من حيث أن له وجوداً خاصاً اتحد به؛ فإنه محال"¹⁴.

ولفهم حقيقة هذا المعنى، ولاكتشاف أسرار وأبعاده، نعرض بالموازنة والتقييم للعتبات النصية، التي تجسد جوانب من رؤية ابن تيمية النقدية في تحليله لبنية الخطاب الصوفي متمثلاً في مفهوم وحدة الوجود، وذلك انطلاقاً من نقول عن الاتحاديين، وبخاصة ابن عربي، باعتباره "الشيخ الأكبر" للصوفية، ولأنه حسب ابن تيمية يندرج في نوع الصوفية الذين كان قولهم بالاتحاد ناشئاً عن مقاربات لسانية، عمادها: اشتباه الألفاظ، وإجمال المعاني، وتعميم المفاهيم.

1.3. وقفة مع عتبة العنوان:

إن أول ما يستوقفنا في رسالة ابن تيمية عنوانها الذي اختاره للتعبير عن فحوى رسالته ومضمونها وهدفها، فاختار له أن يكون: "حقيقة مذهب الاتحاديين -أو وحدة الوجود- وبيان بطلانه بالبراهين العقلية والعقلية"، وهذا العنوان بعده نصاً موازياً من وجه نظر سيميائية، يشغل ثلاث وظائف هي:

(1) **الوظيفة التعيينية (Désignative):** وهي ظاهرة في تمييز هذه الرسالة وتعريفها من خلال الاسم الذي تحمله لكي لا تشبه غيرها؛ إذ ليست رسالة ابن تيمية الوحيدة في الرد على الاتحاديين، فقله "حقيقة مذهب الاتحاديين..." إنما يهدف بهذا الاعتبار إلى تحقيق "التعرف على العمل بكل دقة، وبأقل ما يمكن من احتمالات اللبس"¹⁵.

(2) **الوظيفة اللغوية الواصفة (Métalinguistique):** وهذه الوظيفة "تصلح لوصف النص بواسطة ملمح من ملامحه"¹⁶، والملح البارز الذي يبرزه العنوان هو الرد والنقد والدحض وهو الملح الشامل الذي يفهم من القراءة الأولية للعنوان.

(3) **الوظيفة الإغرائية (Séductrice):** إذ العنوان "يمنح القارئ الفكرة الأولى عنه، وهذا الإحساس الأولي، على قدر ما يكون جذاباً أو مبهرًا للذهن وللعينين، يترك فيه أثراً لمدة قد تطول أو تقصر"¹⁷، وهذا المعنى نجده بارزاً في عناوين كتب ابن تيمية ورسائله، ومنها هذا العنوان الذي بين أيدينا؛ إذ في وصفه لفحواه يستعمل كلمات ذات أفعال تأثيرية؛ حيث يصف نقده بأنه موافق للحقيقة غير حائد عنها، وأنه مستند للأدلة التي سماها "براهين" واحداً برهان وهو "الحجة القاطعة المفيدة للعلم"¹⁸، وهو فوق ذلك متصف بأنه "بيان"، والفرق بينه وبين البرهان اختصاص الأخير بإفساد النقيض¹⁹.

واستعمال ابن تيمية للمصطلحين بهذين المعنيين يلزمه الوفاء بما قد أوردته؛ إذ العنوان شكل من أشكال التعاقد الضمني بين المؤلف والقارئ، فهو إذن: ملزم من جهة "البيان" بإظهار المعاني

===== نقد الخطاب الصوفي عند ابن تيمية: قراءة في عتبات النص لرسالته (حقيقة مذهب الاتحاديين) أنموذجاً

المقصودة كما هي، إظهاراً يستوي فيه ما ينصره وما يرده، وهو من جهة "البرهان" ملزم بإظهار صحة المعنى الذي يؤيده، وبطلان المعنى الذي يدفعه، وهو في حالتنا فساد دعوى الاتحاد ومخالفتها العقل والنقل.

وهذان الأخيران -العقل والنقل- كثيرا من يعبر بهما ابن تيمية في نقوده وردوده، سواء في ثنايا مؤلفاته وذلك كثير جدا، أو في عناوين كتبه، ومن ذلك كتابه الموسوم بـ"درء تعارض النقل والعقل"، وهو ما يجسد الوظيفة الإغرائية بامتياز، إذ هذا الاستعمال يوحى للقارئ بقوة النقد وإحاطته، بحيث يستوعب أنواع الحجج والبراهين المنقولة من قرآن وسنة وإجماع، والمعقولة من قياس ومنطق واستحسان... إلخ، بما لا يدع مجالا للشك في صحة دعوى ابن تيمية وفساد ما خالفها، وتلك سمة تميز بها الخطاب الحجاجي التيمي عموماً.

2.3. وقفة مع الخطاب المقدماتي:

لا يحتاج الأمر لأكثر من قراءة أولية لتظهر الشدة في النقد، والمبالغة في الذم والرد عند ابن تيمية، وهذه السمة بارزة في الخطاب النقدي التيمي عموماً، بل تكاد تكون صفة ملازمة له، عُرف بها، وناله ما ناله من الطعن والقبح من جرائها، ومن ذلك استعماله لأوصاف حادة شديدة في وصف من ينقدهم وما ينقدهم عليه، ونجد ذلك بارزاً في طليعة الرسالة وفي ثناياها، كقوله: "كتبت إليك بما أرجو من الله أن ينفع به المؤمنين، ويدفع به بأس هؤلاء الملاحدة المنافقين، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته المخلوقات والمنزلات في كتابه المبين"²⁰.

وكذا قوله: "... هؤلاء الزنادقة المنتسبين بالعارفين كما تشبه بالأنبياء من تشبه من المتنبئين، وكما شبهوا بكلام الله ما شبهوه به من الشعر المفتعل، وأحاديث المفترين، لتبيين أن هؤلاء من جنس الكفار المنافقين المرتدين، أتباع فرعون والقرامطة الباطنيين، وأصحاب مسيلمة والعنسي ونحوهما من المفترين"²¹، وتجدر الإشارة هنا إلى الأبعاد البلاغية الموظفة في المثالين السابقين وأشباههما مما عجت به الرسالة؛ إذ هي في ذلك تتخذ بعداً حجاجياً؛ فالتشبيه مثلاً -ضمنياً كان أم صريحاً- هو "سر جمال وتأثير، كما يعد آلية من آليات التواصل القائمة على إثبات وتبرير الحجج والدعوى، بغية إقناع المخاطبين"²²، ولهذا يكثر استعماله في مواضع من الخطاب التيمي.

وقريب من هذا ظاهرة السجع التي توشحت بها كثير من عبارات الرسالة وجملها، ولعل هذا الجنوح لاستعمال السجع نابع من "كونه يحقق في الكلام إيقاعاً رناناً ومنغماً، وبنية تطريزية تجعل النص وحدة منسجمة الأجزاء، ومتلاحمة الأصوات، ومعتدلة المقاطع، فتميل إليها النفس كل الميل، ليس بالإصغاء والسماع فقط، وإنما بالفهم والتدبر والحفظ والتصديق، فالخطاب المطرز يكون قادراً أكثر من غيره على جذب المخاطب إلى عالم الخطاب، وحمله على التصديق بما فيه من قضايا، وإقناعه بما أريد إقناعه به دون أن يشعر بالملل أو الفتور"²³.

فابن تيمية على هذا يحشد كل ما تتيحه له اللغة من آليات البيان والبدیع، والحجة والتفريع، وقصده في ذلك إقناع القارئ ومصادرته، وكل ذلك في نسق حجاجي متين، إلا ما كان من تلك الشدة على المخالف والقسوة عليه، والتي يسوغها في الفكر التيمي نصوص وآثار تنتظمها عقيدة الولاء والبراء التي تعد من أصول الدين في الفكر التيمي، وكل هذا يتم في ممارسة واعية

مقصودة، يقول ابن تيمية: "ولهذا لما بينت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم، وسر مذهبهم، صاروا يعظمون ذلك، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والردّ لجعلوني من أئمتهم، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف، كما تبذله النصارى لرؤسائهم، والإسماعيلية لكبرائهم، وكما بذل آل فرعون لفرعون"²⁴.

وابن تيمية مع شدته تلك، تراه يتحرى العدل والإنصاف، فهو في ثنايا نقضه لمقالة ابن عربي يعتذر له، ويبين ما له كما يبين ما عليه، فيقول: "مقالة ابن عربي صاحب فصوص الحكم، وهي مع كونها كفراً فهو أقربهم إلى الإسلام، لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيراً، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره، بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى، والله أعلم بما مات عليه"²⁵.

3.3. وقفة مع عناوين الفصول ومعانها:

ابن تيمية وكعادة كثير من السابقين، يسرد الكلام في تأليفه سرداً، وقد يفصل بين الأجزاء المتطولة أحياناً بقوله "فصل كذا وكذا..."، فتكون الفقرة الطويلة نسبياً كالعنوان الشارح للفصل، ولعل هذا من أسباب صعوبة فهم كلام ابن تيمية، ووعورة مسالكه، وعلاوة على طول الفصول وتعلقها، نجد كثرة الإسهاب والاستطرادات، والإغراق في التفاصيل، حتى يضيع القارئ غير المتمرس في ثنايا كتاباتٍ كأنها المتاهات، بل قد يؤدي ذلك بالبعض إلى الغلط في فهم مقاصد ابن تيمية ومراميه، ولعل هذا هو السبب في نسبة أقوال لابن تيمية لم يكن يقولها، بل مشهور مذهب ردها وتفنيدها، ولكن وعورة الأسلوب، وطبيعة المصطلحات، وطريقة العرض، قد تحمل من لا يردّ بعض كلام الرجل إلى بعض على عدم استبانة المقصود، بل قد يحمله على توهم نقيضه أحياناً، وذلك واقع مشاهد كثير.

وكمثال لما ذكرنا نقف مع أحد فصول الرسالة والذي عنوانه (فصل في ذكر بعض ألفاظ ابن عربي التي تبين ما ذكرنا من مذهبه؛ فإن أكثر الناس قد لا يفهمونه)²⁶؛ فجملة كهذه تعتبر بحق نصاً موازياً، يمكن أن نستشف منه جملة سمات نقدية ميّزت التناول التيمي للخطاب عامة، والخطاب الصوفي خاصة.

فقوله (ذكر بعض ألفاظ ابن عربي)، يظهر منه طبيعة القراءة النقدية عند ابن تيمية، وأنها بالاصطلاح الحديث قراءة نقدية نسقية بامتياز، تنطلق من النص وتعود عليه، فنجد ابن تيمية في هذا الفصل ينقل من كلام ابن عربي في "فصوص الحكم"، ثم يتناوله بالنقد انطلاقاً من التشكيل التركيبي للكلام، والذي ينطلق منه لمقاربة المضامين المتوارية في بنيته العميقة.

وهذا المسلك مما يتناسب وحقيقة مفهوم "الاتحاد" عند ابن عربي وأمثاله؛ إذ "مذهب هؤلاء الاتحادية كابن عربي وابن سبعين والقونوي والتلمساني مركب من ثلاثة مواد: سلب الجهمية وتعطيلهم، ومجملات الصوفية، وهو ما يوجد في كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة [...] فيتبعون المتشابه ويتركون المحكم، وأيضاً كلمات المغلوبين على عقلم الذين تكلموا في حال سكر [...] فهذه المادة أغلب على ابن سبعين والقونوي، والثانية أغلب على ابن عربي، ولهذا هو أقربهم إلى الإسلام"²⁷.

===== نقد الخطاب الصوفي عند ابن تيمية: قراءة في عتبات النص لرسالته (حقيقة مذهب الاتحاديين) أنموذجاً

وبالجملة فمقاربة ابن تيمية النقدية لمقولات (الاتحاد) عند ابن عربي وأضرابه تتخذ بعداً لسانياً، قوامه اعتبارُ الاشتباه والإجمال، ودعامته الاشتراك والاحتمال، "وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم، لما فيه من الألفاظ المجملة والمشاركة، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه، ولهذا يتناقضون كثيراً في قولهم، وإنما يتخيلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه، ولهذا قد افترقوا بينهم على فرق، ولا يهتدون إلى التمييز بين فرقهم، مع استشعارهم أنهم مفترقون"²⁸.

ومما يمكن أن نستشفه أيضاً من خلال عتبات المعاهد الفصلية للرسالة: لغة النقد وبنيته وتركيبه؛ فابن تيمية إنما ينقد الخطاب بنفس لغة ذلك الخطاب ومصطلحاته وتراكيبه، حتى ليكاد يلتبس كلام ابن تيمية بكلام من ينقده لولا مزيد التأمل والتثبت، وذلك لانعدام الفرق بين الكلامين في التركيب والنظم، مما يوحي بإحاطة ابن تيمية بأقوال مخالفيه مما قد يخفى على بعضهم، وكان يقول: "أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام، وأول من ابتدعتها، وما كان سبب ابتداعها"²⁹، وذلك أمر شهد له به من قبل أعدائه قبل أوليائه.

ومن أمثلة هذا قوله "هذه الحقائق الكونية التي ذكرت أنها كانت معدومة في نفسها، مشهودة أعيانها في علمه، في تجليه المطلق، الذي كان فيه متحداً بنفسه بوحدته الذاتية، هل خلقها وبرأها وجعلها موجودة بعد عدمها أم لم تزل معدومة؟ فإن كانت لم تزل معدومة فيجب أن لا يكون شيء من الكونيات موجوداً، وهذا مكابر للحس والعقل والشرع، ولا يقوله عاقل، ولم يقله عاقل. وإن كانت صادرة موجودة بعد عدمها امتنع أن تكون هي إياه، لأن الله لم يكن معدوماً فيوجد. وهذا يبطل الاتحاد"³⁰.

فهذه إذن سمة أخرى مميزة للخطاب النقدي التيمي، في أنه يجانس الخطاب المنقود، ويفككه من داخله، ويحلله بآلته، فلا يستعمل إلا مصطلحاته التي أقرها المخاطب وارتضاها، وذلك أبلغ في البيان والتبيين، والإفهام والتفهم، إذ لو استعمل في النقد غير لغته، واستخدم اصطلاح غير الذي في تركيبته، لكان بذلك النقد مدخولاً، والناقد بسببه مخذولاً.

خاتمة:

كانت هذه إذن قراءة نقدية في بعض العتبات النصية لرسالة ابن تيمية، التي أفردنا لبسط رؤيته في نقد الخطاب الصوفي المتمثل في مذهب القائلين بوحدة الوجود، وهي الرؤية النقدية التي ميزتها عدة خصائص وقفنا عند بعضها من خلال النصوص الموازية للرسالة، والتي كشفت عن أسلوب مميز في نقد الخطاب، وتحليل معانيه، وكشف أسرارهِ ومراميهِ، وبالجملة فنستطيع أن نخرج بعدد من النتائج، منها:

- المنجزات الخطابية، مما يعطي لمصطلح "نقد الخطاب" شرعية الوجود، ويفتح له آفاق الاستمرار والتطور، مستفيداً بذلك من آليات النقد الأدبي، ومناهج البحث اللساني.
- دراسة الفكر النقدي لغير النقاد، مجال خصب للدراسات والأبحاث النقدية والأدبية، لما يتميز به من خصائص وسمات طبعها التخصصات المتنوعة، وغذتها المدارس الفكرية المختلفة.

- الخطاب الصوفي خطاب متميز بكل خصائصه، بدءًا من سياقات الإنتاج، مروراً ببنية الجهاز المصطلحي، والتركيب البياني، ووصولاً إلى مقاربات التأويل والتداول، ولعل ذلك يرجع لخصوصيات الفكر الصوفي، الذي وقفنا عند رؤية ابن تيمية له، من أنه فكر صالح في الجملة، غير أن إغراق بعض طرقه في الأبعاد الفلسفية أخرجته –من الناحية الشرعية– عن النسق الوسطي العام للإسلام، فصيرت التصوّف اسمًا لا مسمًى له بعد أن كان مسمًى لا اسم له.
- القراءة التيمية النقدية للخطاب الصوفي تميزت بسمات مميزة، تمثلت في:
 - تسخير كلّ الآليات اللغوية والبلاغية في النقص والحجاج، كالتشبيه، والسجع والجناس وغيرها، مما من شأنه إقناع القارئ والتأثير عليه، على ما صاحب ذلك من الشدة والحدة في النقد والردّ.
 - الإسهاب في العرض، والإطناب في التناول، مع تحري الدقة في المصطلحات، والاستيفاء في التراكم = كل ذلك جعل من الخطاب التيمي مشروع قراءة صعبًا، يحتاج لقارئ متمرس ذي عُدّة أدبية، وفكرية، وعلمية ليستطيع الإيغال في المعاني الدقيقة التي يقصدها ابن تيمية، وما عدا ذلك فالقراءة السطحية تقود للغلط في فهم مقاصد كلام الرجل، والتجني عليه بتقويله ما لم يقله.
 - القراءة التيمية للخطاب الصوفي ذات بعد نصي نسقي، تبدأ من النص وتعود إليه، وذلك ما يتجسّد في لغة الخطاب ومنظومته المصطلحية، التي رأينا أنها لا تخرج عن لغة الصوفية ومصطلحاتهم، وهو ما يعطي الممارسة النقدية تميزًا وخصوصية.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ):
 - مجموعة الرسائل والمسائل، تحقيق رشيد رضا، لجنة التراث العربي، لبنان، د.ت.ن.
 - مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1995.
2. إلهي ظهير، إحسان، التصوف: المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان، 1986.
3. تركي، أمحمد، حجاجية التشبيه عند النقاد العرب القدامى، مجلة فصل الخطاب، جامعة ابن خلدون – تيارت، الجزائر، العدد 3، المجلد 2، جوان 2013.
4. الزماني، كمال، حجاجية السجع والجناس في الخطاب المقدماتي: مقدمة المقدمة لابن خلدون أنموذجا، مجلة دراسات، جامعة بشار، الجزائر، العدد 3، المجلد 7، ديسمبر 2018.
5. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت395هـ)، معجم الفروق اللغوية، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، د.م.ن، 1992.
6. الكاشاني، عبد الرزاق (ت730هـ)، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، مصر، د.ت.ن.
7. عبد الحميد بورايو، وظائف العنوان، مجلة سيميائيات، جامعة وهران 1، الجزائر، العدد 1، المجلد 4، نوفمبر 2008.

==== نقد الخطاب الصوفي عند ابن تيمية: قراءة في عتبات النص لرسائله (حقيقة مذهب الاتحاديين) أنموذجاً

8. الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحاق (ت380هـ)، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت.ن.
9. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت395هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، لبنان، 1979.
10. جميل حمداوي، مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، مكتبة المعارف، السعودية، 2013.
11. نعمان بوقرة، الخطاب والنظرية والإجراء، دار جامعة الملك سعود للنشر، السعودية، د.ت.ن.
12. عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية: مقارنة تداولية، مؤسسة الانتشار العربي، السعودية، 2013.
13. ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002.
14. رابع بوحوش، الشعرية والخطاب، أعمال الملتقى الدولي الأول في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 11-13 مارس 2003.

الهوامش:

- 1- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت395هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، لبنان، 1979، ج5، ص468.
- 2- جميل حمداوي، مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، مكتبة المعارف، السعودية، 2013، ص7.
- 3- ينظر: جمعان عبد الكريم، تحليل الخطاب والنقد الأدبي، مقال منشور في صحيفة المدينة على الشبكة العالمية، تاريخ النشر: 2012-11-28، تاريخ الدخول: 2025-06-15، <https://www.al-madina.com/article/193129>.
- 4- نعمان بوقرة، الخطاب والنظرية والإجراء، دار جامعة الملك سعود للنشر، السعودية، د.ت.ن، ص: "و".
- 5- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية: مقارنة تداولية، مؤسسة الانتشار العربي، السعودية، 2013، ص43-49.
- 6- ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002، ص155.
- 7- رابع بوحوش، الشعرية والخطاب، أعمال الملتقى الدولي الأول في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح- ورقلة، 11-13 مارس 2003، ص59.
- 8- يعبر عن التصوف بمصطلحات عدة: كالعرفان، والباطنية، والمكنون، والمعرفة، والغنوصية (Gnosticism)، والسر... تبعا لبيئة مستعمل المصطلح.
- 9- الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحاق (ت380هـ)، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت.ن، ص87.
- 10- ابن تيمية (أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، ت728هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1995، ج11/ص16-17.
- 11- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ)، مجموع الفتاوى، المرجع نفسه، ج11/ص16.
- 12- الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحاق (ت380هـ)، التعرف لمذهب أهل التصوف، مرجع سابق، ص87.
- 13- إلهي ظهير، إحسان، التصوف: المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان، 1986، ص37.
- 14- الكاشاني، عبد الرزاق (ت730هـ)، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، مصر، د.ت.ن، ص49.

- 15- عبد الحميد بورايو، وظائف العنوان، مجلة سيميائيات، جامعة وهران 1، الجزائر، العدد 1، المجلد 4، نوفمبر 2008، ص9.
- 16- عبد الحميد بورايو، وظائف العنوان، مجلة سيميائيات، المرجع نفسه، ص12.
- 17- عبد الحميد بورايو، وظائف العنوان، مجلة سيميائيات، المرجع نفسه، ص16.
- 18- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت395هـ)، معجم الفروق اللغوية، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، د.م.ن، 1992، ص97.
- 19- ينظر: العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت395هـ)، معجم الفروق اللغوية، المرجع نفسه، ص108.
- 20- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت728هـ)، مجموعة الرسائل والمسائل، تحقيق رشيد رضا، لجنة التراث العربي، لبنان، د.ت.ن، ج4/ص2.
- 21- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت728هـ)، مجموعة الرسائل والمسائل، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 22- تركي، أمحمد، حاجية التشبيه عند النقاد العرب القدامى، مجلة فصل الخطاب، جامعة ابن خلدون – تيارت، الجزائر، العدد 3، المجلد 2، جوان 2013، ص177.
- 23- الزماني، كمال، حاجية السجع والجناس في الخطاب المقدماتي: مقدمة المقدمة لابن خلدون أنموذجا، مجلة دراسات، جامعة بشار، الجزائر، العدد 3، المجلد 7، ديسمبر 2018، ص81-82.
- 24- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت728هـ)، مجموعة الرسائل والمسائل، مرجع سابق، ج4، ص4.
- 25- المرجع نفسه، ج4، ص6.
- 26- المرجع نفسه، ج4، ص46.
- 27- المرجع نفسه، ج4، ص26.
- 28- المرجع نفسه، ج4، ص4.
- 29- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت728هـ)، (1995)، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج3، ص184.
- 30- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت728هـ)، مجموعة الرسائل والمسائل، مرجع سابق، ج4، ص27.